الدار الاسلامية

في مصر

— ٢ —

للصاغ عبد الرحمن زكي

دولة المماليك البحرية

شيدت دولة المماليك الأولى القصور العالية التي تنافس الامراء في زخرفها وفرشها بشتى المفروشات مما جمل لجميع الفنون الزخرفية سوقاً رائجة في مصر ، فازدهت الصناعات وخدمت الانواق السليمة في تلك المصنوعات . وقد أفاض المؤرخون في وصف عظمة تلك القصور بل وفي مقدار عنايتهم بالشوار الذي كانوا يعدُّونهُ لأولادهم مما يعطينا أحسن فكرة عن مقدار البذخ والترف في ذلك العهد . وأما مخلفات قصر (قوصون) المعروف الآن بقصر (بشتاك) وعند العامة (بردق) الذي يقع الى الجنوب الغربي من مدرسة السلطان حسن ، ويطلق على هذا القصر اسم بيت السلطان . وقد شيده الامير (قوصون) ثم ملكه الامير بشتاك وأخيراً كان من نصيب الامير (اقبردي) الذي تحوَّل اسمهُ الى (بردق) — وعمارة هذا القصر العظيم تحمل طابع القرن الرابع عشر

ولا تنفي قصر (بشتاك) وقصر الامير (يشبري) تجاهه مما أعاد التسمية لهذا الشارع بعد الدولة الفاطمية وبقيت حتى اليوم ويشتركان في أسلوبه المعماري مع قصر بشتاك . وقد بني قصر بشتاك في مكان باب البحر احد أبواب القصر الفاطمي الشرقي . وكان في الأصل لبدر الدين بكتاش الفخري ثم آل الى أمراء السلطان الناصر محمد بن قلاوون بطريق الشراء الذي انشأه من جديد وذلك سنة ٧٣٥—٧٣٨هـ

وقد احتفظ الجزء المتوسط لقصر بشتاك الى الآن بقسم كبير من وجهته التي تطاول السماء رغم ما لحقهُ من تغيير وتبديل خلال السنين التي مرت عليه والى جانبي هذا الجزء المتوسط العالي المشتمل على قاعة كبيرة ذات اربعة أيوانات . أما الايوانان الجانبيان البحري والقبلي

(١) كتاب وصف مصر — ج ١٠ — ص ٤٥٠ و٤٦٥

فتكونان من عمد تحمل طارات يعلوها شرفات صغيرة ذات عمد رشيقة . ويلحق بالحجرة صغيرة لها سقف منقوش مذهب به اسم بنائه . وقد عنيت ادارة حفظ الآثار العربية بهذا القصر وبهذه القاعة فأزالت الابنية الحديثة من الوجهة وأنشأت سقفاً جديداً فوق صحنها .

ومن البيوت المحافظة بنفس الأسلوب المعماري قصر (اينال الحساني) (خير بك) الذي بقي منه اليوم قاعة قديمة . ونذكر ايضاً القاعة الكبيرة في قصر الامير (طاز) التي بقيت من ذلك القصر الفسيح والتي ما زالت تحفظ بعض الاقاريز الملوّنة والكتابات المنقوشة وآثار بعض الزخارف الهندسية

ولم يبقَ من قصر محمد نجم الدين الموقع (٧٥١ هـ) اليوم الاّ القاعة النادرة التي تعرف اليوم باسم قاعة عثمان كتخدا أحد أصحابها (١)

وفي أحد أحياء القاهرة بيوت أخرى على الطراز المعماري للقرن الرابع عشر منها تلك القاعة القديمة التي تحوّلت وأصبحت تعرف باسم (تربة النمامية) . والقاعة الرحبة التي يطلّ بابها على شارع الأزهر الجديد والتي يطلق عليها اسم قاعة داود (محي الدين يحيى) وتعرف اليوم بمسجد نجم الدين وهناك أيضاً الصالة الجميلة التي نعرفها اليوم باسم مدرسة حوش آدم (او مسجده)

ولا جدال في أن هذه القاعة بقية من بقايا قصر قاهري منيف وهي تشتمل على جزء متوسط يحيط به ايوانان جانبيان ، وهي كاملة الزخرف . وهذه المدرسة تشتمل على مجموعة مبانية في التفاصيل . فالقاعة تحمل تاريخ ١٣٦٧ او ١٣٧٧ والدهليز يحمل اسم طاشتمر (١٣٨٦) والدهليز الثاني عام ١٤٦١ والمأذنة وتجديد بناء الردهة والمدرسة يحملان تاريخ ١٤٨٦ ، وكان هذا الامير من عظماء رجال عهد قايتباي

ومقعد قصر ماماي — (مقعد بيت القاضي) وهو كل ما بقي من مخلفات قصر عظيم ويعطي لنا صورة واضحة من العمارة المملوكية . وتقارب عمارة هذا البناء مع مقعد السلطان قايتباي الذي شيده بالقرب من مسجده في القرافة يؤيد التآلف والتناسق لطراز البناء المدني في ذلك العصر

الدور المصرية في العهد التركي

والآن ننتقل الى الدار في العهد التركي (١٥١٧م)

لدينا في القاهرة ورشيد ودمياط أمثلة عدة من الدور المصرية منذ القرن السادس عشر ومعظمها يحتفظ بطابعه الأصلي وتكاد كلها تتفق في هندستها وان اختلفت في مواد بنائها . وأول

(١) راجع كتاب المؤرخة المعروفة مسز دينور نشير Rambles in Cairo — ويقع هذا البيت بالقرب من بيت القاضي بالجمالية

ما نلاحظه ان الطراز المعماري الذي اتبع لداخل البيوت واحد ، فالباب الخشبي مكوّن من صفة واحدة مزخرفة من الخارج بعناية كبيرة على شكل جامة بيضاوية تحيط بها اربع جامات صغيرات موزّعة على الأركان وهي ملوّنة باللون الأحمر وأطرافها الخارجية باللون الأبيض وكثيراً ما تقابل الجامة الكبرى آية قرآنية أو عبارة منقوشة في وسطها « وهو الحيّ الباقي »

وهذه النقوش قد تكون سوداء أو بيضاء اللون وكان لأكثر أبواب الدور صناعة حديدية وقفل خشبي . كما توجد في الغالب درجتان من الحجر لاستطاء صهوة الجواد او الحمار وتمد عنها حلقة حديدية تستخدم في ربط حمار صاحب الدار[1]

ويعلو الباب عقد مونور صنجاته محلاة ومزخرفة تحيط به من أعلاه نقوش عربية . وفوق العقد « مونور » من خشب مربع الخرط متوسط المقاس

وبطابق الدور الأرضي نوافذ خشبية صغيرة عالية لا تسمح للسائر في الطريق او المتسلق ظهر جواد بمشاهدة مايجري في داخل الدور . أما نوافذ الطابق العلوي فتبرز في الغالب قدماً ونصف وكانت تصنع من خشب الخرط فلا يخترقها سوى القليل من الشمس والنور أو الهواء . وفي كثير من الأحوال لايكون خشب الخرط ملوّناً بل يترك على طبيعة لونه الأحمر — تصفّ عليها الغلل الفخارية اثناء الصيف ، وتعلو الشرفية نافذة مستطيلة من خشب الخرط أو الأصابع الخشبية أو الزجاج الملوّن

وتتألف الدار في الغالب من طابقين أو ثلاثة . ولكل دور من الدور الكبيرة فناء مربع الشكل (حوش) يصل اليه من الباب الخارجي بواسطة طرقة على شكل كوع ذات لفة أو لفتين وذلك لكي لا تسمح للسائر في الطريق بمشاهدة أهل الدار وهم في الفناء وعلى يمين الطرقة او يسارها توجد « مصطبة » مشيدة في أحد جانبي الطرقة يجلس عليها حارس الدار أو الخدم . وتوجد في الحوش بئر تتوسطه أحياناً أو على جانب منه وبقربه الأزيار التي تنقل اليها المياه في قرب الجلد بواسطة السقاين من الخارج لترشيحها وتبريدها لاستعمالها بالمنزل . وتطلّ الغرف الرئيسية في الدار على هذا الفناء . ويلاحظ وجود عدة أبواب في الحوش تصل بها الى أجزاء الدار منها باب الحريم (مثلاً) وهو المدخل المرصل الى بئر السلم ويؤدي الى سكن ربّ الأسرة والسيدات والأطفال . وهذا الباب يكون دائماً أقرب الى الداخل من الطرقة

وفي الدور الأرضي توجد غرفة يطلق عليها المندرة (المنظرة) يستقبل فيها الزائرون من الرجال ولهذه المنظرة نافذة كبيرة أو نافذتان من الخشب

---

(١) راجع كتاب المستشرق الانجليزي ادوارد ويليام لين . ص ١ — ١٨ Manners and Customs of the Modern Egyptians

في المنظرة يوجد جزء من الارضية عند باب الدار والجانب المقابل يخفض بضع بوصات عن أرضية المنظرة ويطلق على هذا الجزء « درقاعة »

في منازل الاغنياء تبلط ارضية «درقاعة» المنظرة بالرخام الابيض والاسود والقطع الصغيرة من البلاط الأحمر اللطيف للمنسق للتركيب، وفي وسط «الدرقاعة» نافورة (دسقة) تصب ماءها في حوض غير عميق أرضيته من الرخام الملوّن ملون الأرضية المحيطة بها . ويقابل الباب في نهاية الدرقاعة رفّ من الرخام او الحجر يبلغ ارتفاعه اربعة أقدام يطلق عليه اسم « السفّة » تقوم على عقدين أو أكثر وفي بعض الأحيان ترتكز على عقد واحد يوضع تحتها قليل من الأدوات المنزلية كالمخرة والحوض والأباريق المستعملين للغسيل قبل وجبات الطعام أو بعدها او للوضوء كما توجد بعض الأواني الزجاجية وفناجين القهوة فوق السفّة. وتكون هذه السفّة أحياناً مبطنة بالرخام او البلاط على أسلوب النافورة

والاعتراد او الجزء المرتفع من ارضية المنظرة يسمى « الديوان » وفي هذا المكان تفرش الحصر والبسط وتوضع المقاعد على الأرض ملاصقة للحائط حتى الوسائد والطنافس . وكثيراً ما يُرى في داخل جدران هذه الغرفة دولابين أو ثلاثة جميلة الصنع أبوابها من الخشب المشغول برشاقة وفن تجميل وأحياناً تكون مطعمة بالعاج أو الصدف أو الأبنوس . والسقف الذي يغطي الديوان مصنوع من الخشب، ذو ميدات (عروق) محفورة يبعد الواحد من الآخر قدماً قد تكون ملوّنة او مذهبة . أما جزء السقف الذي يغطي الدرقاعة ليت أحد الأغنياء فكثيراً ما يكون أكثر زخرفة وابداعاً وتنوّعاً في الألوان . وفي منتصف السقف يعلّق القنديل النحاسي الجميل

وفي بعض البيوت توجد غرفة أخرى تسمى المقعد تكون على ارتفاع ثمانية أو عشرة اقدام (٣ متر) فوق الدور الارضي تستخدم كالمنظرة لها واجهة مكشوفة ذات عقدين او ثلاثة وسياج قليل الارتفاع . كما ان هناك أيضاً مكاناً مربعاً يطلق عليه اسم «التختوش» له واجهة مفتوحة في منتصفها عامود من الرخام ليحمل البناء الذي يعلوه صفت على جانبيه المقاعد الخشبية الطويلة المتقنة الصناعة والتي يغطيها نوع من الأنسجة الحريرية . وفي اثناء الصيف ترش أرضية فناء (الحوش) بماء البئر فتكسب البيت نسيماً منعشاً

ومن بين حجرات الدور العلوي في الجزء الخاص بالحريم توجد غرفة يطلق عليها القاعة العلوية وهي قاعة ذات سقف عالٍ على كلا جانبيها ايوانان احدهما أكبر وأفسح من الآخر. وجزء من سقف هذه القاعة الذي يغطي « الدرقاعة » ويقسمها الى ايوانين كما قلنا مرتفع عن الجزئين الآخرين وبه «مرق شخشيخة» اجنابه مؤلفة من ألواح الشربيات وتملوها قبة صغيرة وقد لا نجد في هذه «الدرقاعة» نافورة ولكن نجد أرضيتها مبلطة بطراز ارضية المنظرة

وهنا توجد صفة جميلة وبعض الدواليب الأنيقة وعلى جدران هذه القاعة غير هذه توزع من الخشب مثبتة على كوابيل مزركشة تحمل عليها بعض الاواني الخزفية وفي الجانب الثاني من القاعة أجمل غرف البيت وهي صالون الدار الاسلامية — وتقام في هذه القاعة حفلات الاسرة ومجلس الموسيقيات (الحوالي) تشتمل على الدفوف والعود والقانون والطبلة . ويلاحظ في تخطيط الدار المصرية انه يتقصها النظام الذي يراعى اليوم فالغرف مختلفة الطول وأرضياتها ليست في مستوى واحد وعند النقل يخطو الانسان عدة درجات ، والغرف المتجاورة يفصلها الحمام

بعض الدور الاسلامية في القاهرة

والآن قبل ان نختم هذا المقال نعرج على بعض احياء القاهرة القديمة لنأتي على وصف بعض دورها الأثرية التي ما زالت الى اليوم قبلة عشاق الفن الاسلامي ومحبي العمارة القاهرية [1]

بيت جمال الدين الذهبي

عمارة خشقدم سنة ٨٧٠ هـ — (١٤٦٧م)

أنشأ هذا المنزل الخواجه جمال الدين الذهبي كبير التجار بمصر وهو يكاد يكون باقياً على حالته الاولى ومظهره الخارجي لا يستوقف النظر على ضد مظهره الداخلي فانه جدير بالاعجاب فعلى حوشه اللطيف يشرف من الجهة القبلية مقعد ذو عقدين متكئين على عمود من الرخام ، ومن الجهة الشرقية تطلُّ القاعة الكبرى ذات الليوانين تتوسطها (درقاعة) مغطاة بقبة صغيرة من الخشب . وجدران القاعة مكسوّة أسفلها بوزرة جميلة من الرخام الدقيق وبصدر القاعة شرفية لطيفة مطلة على الشارع تملوها شبابيك صغيرة من الجص المخلى بقطع من الزجاج الملون ، وسقفا القاعة والمقعد محليان بالدهان المموّه بالذهب . ومما يلفت النظر في هذا البيت حمّامه الصغير الكامل النظام فضلاً عن السلالم الكثيرة المؤدية الى اجزاء المنزل المختلفة

سراي المسافرخانة بدرب الطبلاوي

سنة ١١٩٣ هـ (١٧٧٩ م)

أنشأ هذه السراي محمود محرم أحد تجار القاهرة . وهي مكوّنة من قسمين احدهما يجري انشاؤه سنة ١١٩٣ هـ (١٧٧٩م) وتتوصل اليه من درب المسط . والآخر قبلي أنشيء سنة ١٢٠٣ هـ (١٧٨٩م) وتتوصل اليه من درب الطبلاوي الاّ أن القسمين ارتبطا احدهما بالآخر وصارا سبتي واحداً يتوصل اليه الآن من درب الطبلاوي

(١) راجع كتاب Edmond Pauty, Les palais et les maisons d'epoque Musulmane au Caire

الجزء البحري — يتكون من «دركاه» بها على اليسار باب يؤدي الى القسم القبلي وباب آخر يؤدي الى حوش مكشوف به على اليسار (الشرقي) باب يؤدي الى سلم ثاني يوصل الى الغرف العلوية ويلي السلم قاعة ذات ايوانين بينهما (درقاعة) مفروشة بالرخام الملوّن . ويلي هذه القاعة باب يؤدي الى القسم القبلي ثم مختبوش سقفه قشر بلدي جيل

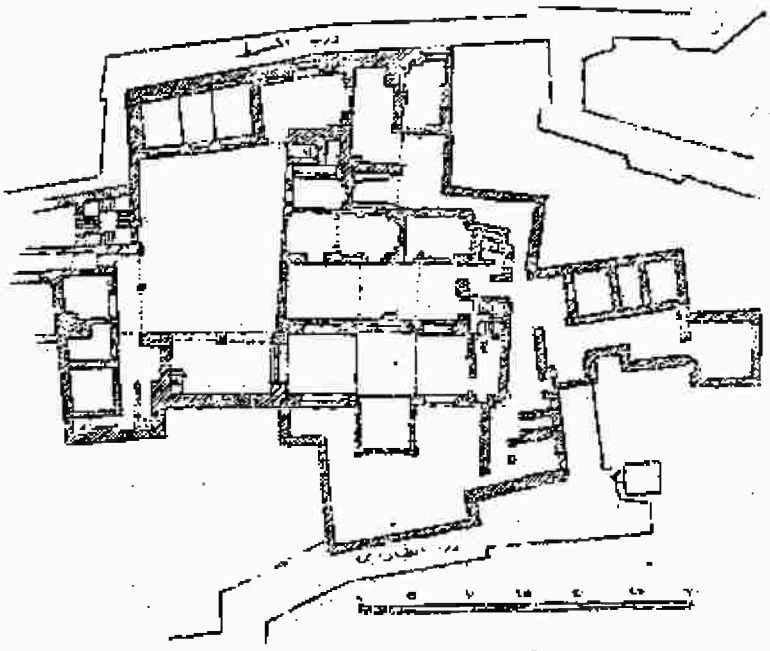

رسم الدور الأرضي بقصر المسافرخانة نقلاً « عن بوتي »

أما على اليمين في الجهة البحرية قاعة بسيطة يليها من الغرب السلم الرئيسي المؤدي الى جميع غرف الدور العلوي وأهمها القاعة الكبرى الراكبة فوق « التختبوش » والمشتملة على مجموعة قيمة من الرخام والنجارة وخصوصاً الشخشيخة . هذا فضلاً عن المشربيات الخرط المحيطة بالحوش

الجزء القبلي — يتوصل من بابه الاخير الى ردهة فسيحة تؤدي الى قاعة بأرضيتها نسقية رخامية دقيقة وجانبها القبلي كله من الخرط والسقف لا يقل فخامة عن سقفي التختبوش والقاعة العليا. ويلاحظ ان هذه هي المراي الاصلية بعد هدم اجزاء منها من الغرب والجنوب بسبب خللها

وبعد وفاة منشئها آلت الى الاسرة العلوية المحمدية فاتخذتها مقرًّا لضيافة الواردين الى مصر من الكبراء ولذلك عرفت (بالمسافرخانة)

منزل ابراهيم كتخدا السناري

حوالي سنة ١٢٠٩ هـ — (١٧٩٤ م)

هذا المنزل بحارة (منج) التي سميت بهذا الاسم نسبة الى مسيو (منج) احد علماء الحملة الفرنسية انشأه ابراهيم كتخدا السناري وجيهته بسيطة ليس فيها ما يهمّ سوى الباب العمومي والمشربية التي تعلوه، وبالجنب القبلي للحوش تختبوش ومقعدٌ بابه مشحون بالزخارف وسقفهُ يؤدي الى بابين : الايمن منهما يوصل الى بعض حجر المنزل ثم الى القاعة الكبيرة والحمّام ، والباب الايسر يؤدي الى المقعد والجناح الشرقي . وتنحصر مكانة المنزل في ان الحملة الفرنسية اثناء اقامتها بمصر سنة ١٢١٣—١٢١٦ هـ (١٧٩٨—١٨٠١ م) خصصتهُ لإقامة مصوّريها وبعض علمائها ومنهم ريجو الرسام المشهور وملاوس ولانكريه وتيراج وجالوى . وفيه عملت الابحاث والرسوم القيمة التي نشرت في كتاب (وصف مصر) وفي المدة من سنة ١٩١٦ الى سنة ١٩٢٦ أقام به جيارد و بك متحفاً باسم (بونابرت) أُغلق بعد وفاته ثم أُخلي من السكن سنة ١٩٣٣ (١)

بيت الشيخ عبد الوهاب الطبلاوي

الشهير ببيت «الحيمي» — بالدرب الأصفر ١٠٥٨—١٢١١ هـ (١٦٤٨—١٧٩٦ م)

هذا المنزل مكوّن من قسمين . احدهما : وهو الجزء القبلي أنشأه الشيخ عبد الوهاب الطبلاوي سنة ١٠٥٨ — هـ (١٦٤٨م) وأهم مشتملاته القاعة الكائنة على يمين الداخل ثم القاعة الكائنة المشتملة على مجموعة قيمة من المشربيات والشبابيك الخرط الدقيقة الصنع .

أما القسم الآخر وهو البحري فقد أنشأه الحاج اسماعيل بن الحاج اسماعيل چلبي سنة ١٢١١ هـ (١٧٩٦م) وأدمجه في القسم الأول وجعل منهما منزلاً واحداً

وهذا القسم أهم وأكبر من القسم الأول فهو يشتمل أولاً على قاعة بحرية كبيرة تعلوها حجرة مثلها ولكل منهما وجهة بحرية من الخشب الخرط الجميل مشرفة على الحديقة الكبرى ويقابل هذه القاعة قاعة أخرى غربية توسطها فسقية من الرخام الدقيق وبها نافورة تعدُّ من أدقّ وأجمل ما صنع من نوعها . ويكتنف هذه القاعة سلمان يؤديان الى الدور العلوي المشتمل ضمناً على قاعة راكبة على التختبوش هي أفخم وأجل حجرات المنزل جدرانها مكسوّة بالفاشاني المنوع وبصدري ايوانها دواليب دقيقة الصنع تنتهي من أعلاها بمقرنصات تعلوها رفوف وضعت عليها مجموعة لطيفة من الأواني الفاشاني وبالحجرة باب مطعم بالسن والزردشان من صناعة القرن العاشر الهجري . ووجهتها القبلية من الخشب الخرط الجميل

(١) راجع كتاب « في مصر الاسلامية » الذي طبعه المقتطف سنة ١٩٣٧ — مقال الاستاذ محمود أحمد باشا من تاريخ العمارة الاسلامية بمصر

قصر محمد علي باشا بشبرا

وفي عام (١٢٢٣هـ — ١٨٠٨م) أمر المغفور له محمد علي باشا بإنشاء قصر خلوي في وسط بستان كبير في شبرا، وقد بقي الى اليوم ، ويعرف بكشك القسقية . وهو بناء مستطيل مساحته ١٣٥٣٠ متراً تتوسطه بركة ماء كبيرة من الرخام في وسطها مجلس مستدير على هيئة جزيرة أحيط بسياج من الرخام وحمل على تماثيل من النحاس ، وكان الوصول اليه بزورق مذهب، وفي الأركان الأربعة لحافة البركة أسودٌ رابضة تخرج المياه من أفواهها . وفي المثلثات التي ربضت عليها حفرت أنواع الأسماك بحركاتها وهي تسبح في الماء

ويحيط بالبركة عمد من الرخام تحمل السقف الحافل بالنقوش وبين هذه العمد سياج من الرخام المزخرف يحمل اعمدة رخامية بها زهور

وفي النواصي الأربع حجرات كبيرة احداها الشرقية القبلية المعروفة « بصالة الحوز » فرشت أرضياتها بخشب الحوز القيم وكسيت جدرانها بوزرة منه بها زخارف دقيقة ويعلو الوزرة طراز مزخرف ثم السقف الحافل بكثير من النقوش تتوسطه ثريا كبيرة كونت زخارفها من طيور ناشرة أجنحتها . وقد بقي في هذه الحجرة بعض أثاثها المنسجم مع طرزها . والحجرة الثانية في الركن الشرقي البحري وسقفها منقوش نقشاً عربيًّا ، وقد كتب في وسطه (محمد علي باشا — ابراهيم باشا) وكتب حولها (طوسون باشا — اسماعيل باشا — عبد الحليم بك — حسين بك — سعيد باشا) والحجرة الغربية البحرية خاصة بالليوان تتوسطها طاولة كبيرة كفت بزخارف مذهبة

الخلوصة

وما زال في القاهرة عدد كبير من بقايا البيوت الأثرية ولاسيما ما كان يطلُّ منها على الخليج قبل ردمه منذ نيف وأربعين عاماً . وقد أوردها المهندس الأثري المسيو ادمون بوتي في كتابه النفيس « قصور وبيوت القاهرة في العصر الاسلامي» الذي طبعه عام ١٩٣٣. وفي هذا الكتاب استطاع المؤلف أن يصف حوالي ثلاثاً وستين دوراً موزعة بين أحياء القاهرة القديمة: القاهرة البحرية التي تشتمل اليوم على حيّ الحسينية . ومن هذه الدور بيت البكري بالخرنفش وهو من طراز تركي شيد في عصر الوالي عباس الأول (١٨٤٨) . وبيت السحار والقاهرة المركزية (الدرب الأحمر) والقاهرة القبلية (حي الخليفة والسيدة زينب) — وحي القلعة . ومصر القديمة — والضاحية الشرقية . . . الخ

ومن حسن حظ محبي الآثار الاسلامية ان تكون هذه البيوت الجميلة موضع عناية ادارة حفظ الآثار العربية ، وهي محطُّ عطفها وتقديرها